



٠٤ يناير ٢٠٠٥

أقلام حرة

جديد

العرب قبل الإسلام (١)

العقائد .. والتعدد .. والأسلاف

سيد القمني

معلوم أن عجز الإنسان وضعفه أمام ظواهر الطبيعة المتقلبة وقواها، مع قصور تجربته ومعرفته، كان هو الدافع لتصور قوى مفارقة ميتافيزيقية، هي التي تقف وراء متغيرات الطبيعة وثوراتها وغضبها وسكونها، لان تلك الظواهر لم تكن مفهومة، فقد جاءت تلك القوى أيضا غيبية و لذلك ارتبطت عقائد الناس في أربابها بوسطها البيئي، حيث عبرت عن ذلك الوسط وظهر مظاهره وأكثرها تكرارا وديمومة، ومن هنا قدس العربي أجرام السماء التي تظهر بكل وضوح في ليله الصحراوي المنبسط، دون حواجز حتى الأفق بدائرته الكاملة، كما قدس الأحجار خاصة ذات السمات المتفردة منها، فبيئته رمال وصخور وأحجار، وقد غلب انتشار الصخور البركانية في جزيرة العرب لانتشار البراكين فيها، وأطلقوا عليها سم الحرات من الحرارة والاصهار.

لكن اتساع رقعة الجزيرة على خطوط عرض واسعة، أدى إلى تبيان ظروف البيئة والمناخ، مما أدى إلى تعدد مماثل في الظواهر، وبالتالي تعددية مفرطة في العبادات، هذا ناهيك عن وعورة المسالك في الجزيرة ، والتي أدت إلى ما يشبه العزلة لمواطن دون مواطن، خاصة تلك التي في الباطن، مما أدى إلى احتفاظها بألوان من العقائد الموعلة في قدمها وبدانيتها، نتيجة عدم الاحتكاك بالثقافات الأخرى التي تساعد على تطور الراسب المعرفية من ثم العقائدي. التعدد في العبادة وهكذا يمكنك أن تجد إضافة لعبادة أجرام السماء وعبادة الأحجار والصخور، بقايا من ديانات بدائية كالفيتيشية والطوطمية، وعبادة الأوثان وعبادة الأسلاف. والفيتيشية أكثر ديانات الجزيرة انتشارا بين أهلها، وهي تقدس الأشياء المادية كالأحجار، للاعتقاد بوجود قوى سحرية خفية بداخلها، أو لأنها قادمة من عالم الآلهة في السماء أو من باطن الأرض حيث عالم الموتى، وقد ظلت تلك العقائد قائمة حتى ظهور الإسلام. أما الطوطمية، التي تعتقد بوجود صلة لأفراد القبيلة بحيوان ما مقدس، فتظهر في سميات قبائل العرب ، مثل (أسد، فهد، يربوع، ضبة، كلب، ظبيان ... الخ). لذلك كانوا يحرمون لمس الطوطم أو حتى التلطف باسمه، لذلك كانوا يكتنون عنه، فالملدوغ يقولون عنه السليم، والنعامة يكني عنها المحلى، والأسد أبي حارث، والشعب ابن أوى، والضبع أم عامر، وهكذا. هذا إضافة إلى تقديس الأشجار، مثل ذات أنواط التي كانوا يعظمونها، ويأتونها كل سنة فيذبحون عندها ويلقون عليها أسلحتهم واربدهم. كذلك عبد العرب كانت أسموها (الجن) خوفا ورهبة، ودفعا لأذاها، وظنوها تقطن الأماكن الموحشة والمواضع المقفرة والمقابر، وكان العربي إذا دخل إلى موطن قفر حيا سكانه من الجن بقوله: عموا أطلاها، ويقف قائد الجماعة ينادي : إنا عائدون بسيد هذا الوادي، وتصوروا الجن كحال العرب، فهم قبائل وعشائر تربط بينهم صلات الرحم ، يتقاتلون ويفرز بعضهم بعضا، ولهم سادة وشيوخ وعصبيات، ولهم من صفات أحر بان كثير، فهم يرعون حرمة الجوار ويحفظون الذم ويعقدون الأحلاف. وقد يتقاتلون فيثيرون العواصف، ويصيبون البشر بالأوبئة والجنون. وقد نسبوا إلى الجن الهتف قبل الدعوة مباشرة، حيث كثر الهواتف أي الأصوات التي تنادي بأمر وتنبئ بأخرى بصوت مسموع وجسم غير مرئي. وقد اعتمد الكهان على تلك الاعتقادات فرعموا أنهم يتلقون وحيهم عن الجن، وان الجن بامكانها الصعود إلى السماء والتتصت على فصائر البشر في حكايات الملأ الأعلى مع بعضهم عنم في الأرض، وان الكهان بامكانه معرفة مصائر البشر عبر رفيقا من الجن. عبادة الأسلاف أما أشد العبادات انتشارا وأقربها إلى الظرف المكاني والمجتمعي، فهي عبادة الأسلاف الراحلين، ويبدو لنا أن تلك العبادة كانت غاية التطور في العبادة في العصر قبل الجاهلي الأخير، حيث كان ظرف القبيلة لا يسمح بأي تفكك نظرا لانتقالها الدائم وحركتها الواسعة وراء الكلا، وهو التنقل الذي كان يلزمه لزوجة جامعة لأفرادها، ثم تمثله في سلف القبيلة وسيدها الراحل الغابر، فأصبح هو الرب المعبود وهو الكافل لها الحماية والتماسك، بوصفها وحدة عسكرية مقاتلة

قمنيان

مقديسيان

اشاعة اسمها
حقوقه إنسان

الذخيرة الغائبة

قصائد

انصل بنا

شهادان

خواص من صديقي

مقالات

قرآن لك

روابط

محرحة دوما، تأسبت بمعهم الوصن معهم الحمى، وادي يسرف عيه سيدهم وابوهم القديم وربهم المعبود، حيث تماهى جميع أفراد القبيلة فيه، ومن هنا كان الرب هو سيد القبيلة الراحل القديم، الذي تمثلوه بطلا مقاتلا أو حكيما لا يضارع، ومن ثم تعددت الأرباب بتعدد القبائل، ونزعت القبائل مع ذلك نحو التوحيد، وهى المعادلة التي تبدو غير مفهومة للوهلة الأولى، لكن بساطة الأمر تكمن في أن البدوي في قبليته كان لا يعبد في العادة ويوجل سوى ربه الذي هو رمز عزته ورابط قبيلته، ولا يعترف بأرباب القبائل الأخرى، وهو الأمر الذي نشهد له نموذجا واضحا في المدون الإسرائيلي المقدس، حيث عاش بنو إسرائيل ظروف قبيلة شبيهة، فيقول سفر الخروج: "من مثلك بين الآلهة يارب"، أي أن القبلي كان يعرف أربابا أخرى لقبائل أخرى، لكن ربه هو الأعظم من بينها. لذلك لكن البدوي في قبليته يأتف أن يحكمه أحد من خارج نسبه، لأن نسبه هو ربه، هو سلفه، هو ذاته، هو كرامته وعزته، لذلك كانت عبادة الأسلاف أحد أهم العوامل في تفرق العرب القبلي، وعدم توحدهم في وحدة مركزية تجمعهم. ولم يأت الاعتراف بالهة أخرى لقبائل أخرى إلا فيما بعد، بعد دخول المصالح التجارية للمنطقة، واستعمال النقد، وظهور مصالح لأفراد في قبيلة ترتبط بمصالح لأفراد في قبيلة أخرى، مما أدى لاعتراض متبادل بالأرباب، وهو الأمر الذي بدأ يظهر خاصة في المدن الكبرى بالجزيرة على خط التجارة، في العصر الجاهلي الأخير، كما حدث في مكة والطائف ويثرب وغيرها. المستوى المعرفي داب بعض مفكرينا في شؤون الدين - عافاهم الله - على الحط من شأن عرب الجزيرة قبل الإسلام، وتصويرهم في صورة منكرة، وسار على دربهم أصحاب الفنون الحديثة في القصة والسيناريو والأعمال الفنية السينمائية، بحيث قدموا ذلك العربي عاريا من أية ثقافة أو حتى فهم أو حتى إنسانية، حتى باتت صورته في ذهن شبيبنا، إن لم تكن في أذهان بعض المثقفين بل والكتاب أيضا، أقرب إلى الحيوانية منها إلى البشرية. وقد بدا لهؤلاء أن القدر في شأن عرب قبل الإسلام، وإبرازهم بتلك الصورة المزرية، هو فرش أرضية الصورة بالسواد، لإبراز نور الدعوة الإسلامية بعد ذلك، وكلما زادوا في تبشيع عرب الجاهلية، كلما كان الإسلام أكثر استنشاء وثقافة وعلماء وخلقاً وتطوراً على كل المستويات. وإن الأمر بهذا الشكل يبعث أولا على الشعور بالفجاجة والسخف، ثم هويجا في ابسط القواعد المنطقية للإيمان، فالإيمان يستدعي بداية قيمته من دعوته، ومن نصه القدسي، وسيرة نبيه، فقيمه في ذاته، قيمة داخلية، وليست من فارقته بأخر، أما الأتكي في الأمر، فهو أن تتم مقارنة الإلهي بالإنساني، لإبراز قيمة الإلهي إزاء نقص الإنساني، في تلك الحال ستكون ظالمة لكليهما: الإلهي والإنساني، فالإلهي لا يقارن بغيره، كما أن مقارنة الإنساني به فداحة في التجني على الإنساني بما لا يقارن مع الإلهي. وقد فطن (الدكتور طه حسين) إلى ذلك الأمر وعمد إلى إيضاحه في كتابه "الأدب الجاهلي" مبينا مدى تهافت الفكرة الشائعة حول جاهلية العرب قبل الإسلام، وكيف أن تلك الفكرة أرادت تصوير العرب كالحوانات المتوحشة، لإبراز دور الإسلام في نقله الإعجازي هؤلاء الأقوام المتوحشين، فجأة وذن مقدمات موضوعية، إلى مشارف الحضارة، فجمعهم في أمة واحدة، فتحوها الدنيا وكونوا إمبراطورية كبرى. هذا بينما القراءة النزيهة لتاريخ عرب الجزيرة في المرحلة قبل الإسلامية تشير بوضوح، إلى أن العرب لم يكونوا كذلك وفي تطورهما الإنساني، أما الركون إلى عقائدهم لتسفيهم، فهو الأمر الأشد فجاجة في الرؤية، فيكفي أن نلقي نظرة حولنا، على الإنسان وهو في مشارف قرنه الحادي والعشرين، لنجد له يزل بعد يعتقد في أمور هي من أشد الأمور سخفا. معارف العصر والمطالع لأخبار تلك العصر المنعوت بالجاهلي، في كتب الأخبار الإسلامية ذاتها، سيجد في الأخلاق مستوى رفيعا هو النبالة ذاتها، وسجد المستوى المعرفي يتساوق تماما مع المستوى المعرفي للأمم من حولهم، وإن معارفهم كانت تجمع إلى معارف تلك الأمم معارفهم الخاصة، فقط كان تشتتهم القبلي وعدم توحدهم في دولة مركزية، عائقا حقيقيا دون الوصول إلى المستوى الحضاري لما جاورهم من حضارات مركزية مستقرة. وهو الأمر الذي أخذ في التطور المتسارع في العصر الجاهلي الأخير نحو التوحد في أحلاف كبرى، تهيئة للامع العظيم الآتي في توحد مركزي ودولة واحدة كبرى. فعلى مستوى المعارف الكونية، كان لدى العرب تصورات واضحة، تضاهي التصورات في الحضارات حولهم: فالأرض كرة مدحاة، والسماء سقفا محفوظ، تزينه مصابيح هي تلك النجوم، وفيه كواكب سيارة، أطلقوا عليها (الخنس الجوازي الكنس)، فهذا (زيد بن عمرو بن نفيل) يحدثنا عن التصور الكوني المعروف في بلاد الحضارات، في قوله: دحاها فلما رآها استوت على الماء أرسى عليها الجبالا بينما نجد (أمية بن عبد الله الثقفي)، يصور لنا ما درج عليه العالم القديم من تصور لسماء سقفا بلا عمد، وأنها طبقات سبع، وإن الشهب فيها حماية ورسدا ومنعا للجن من استراق السمع على الملأ الأعلى، وذلك في قوله: بناها وابتنى سبعا شدادا بلا عمد يرين ولا حبال سواها وزينها بنور من الشمس المضيئة والهلال ومن شهب تلالا في دجاها مراميا أشد من النضال المعارف الدينية أما على مستوى المعارف الدينية، وكانت سمة عصرها، وهى المنحولة عن عقائد الرافدين القديمة ومصر القديمة وبلاد الشام وفلسطين، وجاء تفصيلها مجملا في مدونات التوراة، فهو الأمر الذي كانت تعرفه جزيرة العرب، فعذا (الأنف ه الامدم) بأد الأ أن سحا، أسماء أثناء نه ح ف قه له . ولما بعصمنا

سرب : هـ (أمره - أوي) يجي به ان يسب الله بعد ان بي حرد . وما يسب
سام وحام ويا فت حيثما حلت ولام أما طول العمر النوحى فكان مضرب المثل ، وهو ما
يؤخذ من مديح الأعشى لأياس جزى الله إبسا خير نعمة كما جزى المرء نوحا بعدما شابا
في فلكه إذا تبدأها ليصفها وظل يجمع ألواحا وأبوابا وهو ما جاء أيضا في ضرب الواجز ،
رافضا عمرا كعمر نوح فعلت لو عمرت سن الحل أو عمر نحو زمن الفطحل والصخر مبتل
كطين الوحل صرت رهينة هرم أو قتل وكان انتشار قصص التوراة في معارف الأمم يجد
صوابه في معارف ذلك العصر، فها هو (أمية بن أبي الصلت) يقدم حوارا شعريا بين موسى
وهارون وبين فرعون، يقول فيه : وأنت الذي من فضل ورحمة بعثت إلى موسى رسولا
مناديا فقلت له : اذهب وهارون فادعوا إلى الله فرعون الذي كان طاغيا وقولا له : أذنت
سويت هذه بلا وتد حتى اطمأنت كماهيا وقولا له : أذنت رفعت هذه بلا عمد، أرفق ، إذا بك
باتيا بل وعرف العرب قصة مريم وولدها، وسارت فيهم كقصة معلومة، وهو ما صاغه
(أمية) شعرا بدوره ، إضافة لما جاءت به المسيحية عن يوم بعث ونشور، مضافا إليه ما
سبق إليه المصريون من القول بحساب للموتى أمام موازين العدل في قاعة الحساب
السماوية ، فهذا شعر بقى عن (قس بن ساعدة) يقول: يا ناعي الموت والأصوات في جدث
عليهم من بقايا برعم خرق دعهم فإن لهم يوما يصاح بهم فهم إذا انتبهوا من نومهم فرقوا
حتى يعودوا لحال غير حالهم خلقا جديدا كما من قبله خلقوا فيهم عراة ومنهم في ثيابهم
منها الجديد ومنها المبهج الخلق وهو الأمر الذي يوضحه شعر (زيد بن فضيل) وهو يصور
أحوال الحساب ونتائجه في قوله: ترى الأبرار دارهم جنان وللكفار حامية السعير وخزي في
الحياة وان يموتوا يلا قواما تضيق به الصدور وهو ذات الأمر الذي فصل أمره (أمية الثقفي)
في قوله : باتت همومي تسري طوارقها اكف عيني والدمع سابقها مما أنتي من اليقين ولم
أوت برأة يقصى ناطقها أم من تلظى عليه راقدة النار محيط بهم سرادقها أم أسكن الجنة
التي وعد الأبرار مصفوفة نمارقها لا يستوي المنزلات ولا الأعمال تستوي طرائقها وفرقة
منها أدخلت النار فساعت مرافقها أما (علاف بن شهاب التميمي) فيؤكد: وعلم أن الله يجازي
عبده يوم الحساب بأحسن الأعمال كذلك جاء تقرير (زهير بن أبي سلمى واضحا) في قوله :
فلا تكتنن الله ما في نفوسكم ليخفي، ومهما يكتنن الله يعلم يؤخر فيوضح في كتاب فيدخر

ليوم الحساب، أو يعجل فينتقم



جديد

أقلام حرة

العرب قبل الإسلام (٢)

العقائد.. والتعدد.. والأسلاف المعالم الأدبية

سيد القمني

ليس جديدا التأكيد على شعرية العربي، حتى قيل إن كل عربي شاعر، وحتى أصبح الشعر ديوان العرب، رواية حالهم وظروفهم وعقائدهم، وسجل لمعارفهم ومستواهم الثقافي الأخلاقي، وسجل لحياتهم العملية وطرق عيشهم بل ورواهم الفنية والفلسفية.

وإلى جانب الشعر كان معلم الخطابة بما حواه من ذات المحتويات الشعرية، ينثره المنظوم المسجوع، إضافة إلى سجع الكهان، المرسل منه والمزدوج. وكان للعرب أسواقهم، التي عادة ما كانت تفتتح افتتاحا ثقافيا، بإلقاء الخطب النثرية، والقصائد الشعرية، وإجراء المسابقات حول أفضل القصائد، وهو ما برز في (المعلقات السبع)، مما يشير إلى ديدن أمة اهتمت بتنمية الثقافة وتشجيعها، رغم تشتتها شيعا في قبائل لا تجمعها وحدة مركزية. النثر المسجوع وكان العربي حريصا على تقديم معارفه وثقا فته شعرا، وإن نثرها حرصا على الجرس الموسيقي فيها، مما يشير إلى رهافة في الحس وارتقاء في الذوق، ونماذج من ذلك النثر، ما جاء قسما بالمظاهر الكونية عند (الزبراء) وهي تقول: "واللوح الخافق، والليل الفاسق، والصباح الشارق، والنجم الطارق، والمزن الوادق، إن شجر الوادي لياود ختلا، ويرق أنيابا عملا، وإن صخر الطوا لينذر ثقلا، لا تجدون عنه معلا". ومن ألوان هذا السجع سجع ديني، جاء في وصف "ربيعة بن ربيعة" ليوم البعث والنشور، بقوله: "يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، يسعد فيه المحسنون، وبشقى فيه المسيئون"، وهو ذات الرجل الذي يقسم بصدق قوله: "والشفق والغسق" والقتل إذا اتسق، إن ما أنبتك به لحق" أما (شق بن صعب) فيصف ذات اليوم بقوله "يوم تجزي فيه الولايات، يدعى فيه من السماء بدعوات، يسمع منها الأحياء والأموات، ويجمع فيه الناس للميقات، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات". ويقسم (ابن صعب) لسائله بأنه يقول الحق: "ورب السماء والأرض، وما بينهما من رفع وخفض، إن ما أنبتك به لحق، ما فيه امض". أما الكاهن الحزاعي الذي احتكم إليه هاشم وأميه في نزاعهما، أصدر قراره سجعا يقول: "والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، من ستجد وغائر، قد سبق هاشم أميه إلى المفاجر". أما "قس بن ساعدة الأيادي" فيرسل سجعه مصورا معارف العصر الكونية في نثره قائلا: "ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزه، وبحار تزخر، وأرض مدحاة، وأنها مجردة، أن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا". المعلم الشعري والشعر الجاهلي وثيقة هامة في يد الباحث العلمي، تأخذ سميت المعلم التاريخي، رغم ما أثير حول الشعر الجاهلي من تشكيك في صحة انتسابه لعصره فعلا، وكان ابرز ما قيل بشأنه قضية النحل التي أثارها (الدكتور طه حسين) في كتابه الشعر الجاهلي، والمحكمة المشهورة التي جرت آنذاك بشأن ذلك الكتاب وصاحبه. لكن ما يدعو إلى الاطمئنان في الغالبية مما وصلنا من ذلك الشعر، مدونا بأقلام المسلمين، هو أن القافية والوزن كانا يضمنان منع حدوث تغيير كبير على ذلك الشعر، كما أن المحتوى البسيط لذلك الشعر، وماجا، به من أخبار التخاصم على الإبل والمراعي يضمن عدم التصنع، وعلى رأي (د. حسني مروة) أننا لو حكمنا على شعر الأخطل وجريير..... بشكله، لتعذر علينا نسبته إلى ما بعد الإسلام. وكان (ابن سلام) أول من بحث قضية الانتحال، وعزا أسبابها إلى العصبية القبلية، والرواة الرضاعين، مثل حماد الراوية، وخلف الأحمر. وسبق الجميع إلى مسألة الانتحال (المفضل الضبي) الذي نقد خلفا الأحمر، أما (طه حسين) فقد ردد ما سبقه إليه المستشرق (مرجليوث) بشكل مختلف بعض الشيء. وإن كان أهم حيثيات محاكمته هي إنكاره هبوط إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام جزيرة العرب. وقد قامت جمهرة السلفيين تؤكد قبولها صحة نسب الشعر الجاهلي دون تحفظ أو تشكك، وقد ظهر ذلك واضحا في المؤلفات التي وضعت للرد على (طه حسين)، ونموذجا لذلك ما جاء في كتاب (نقض كتاب في الشعر الجاهلي) لمحمد أحمد الغمراوي، و(مصادر الشعر

شهادان

خواص من صديق

مقالات

قرآن لك

روابط

قمنيان

مقديسيان

اشاعة اسمها

الحقيقة الغائبة

قصائد

انصل بنا

الجاهلي) لناصر الدين الاسد، وغيرهم . ونسبه السعير الجاهلي لعصره ، قد اتفق امرها بين المسلمين السلفيين ، وبين كثير من المستشرقين ، وهو ما يمثل نموذجاً قول المستشرق (ليال): "والواقع أن هذا الشعر الجاهلي، قد أفاد المؤرخ الباحث في تأريخ الجاهلية، فائدة لا تقدر بثمن، وربما زادت فائدة هذا الشعر من الوجهة التاريخية، على فاشدته من الوجهة الأدبية، لأنه حوى أمورا مهمة عن أحداث العرب الجاهليين ، لم يكن في وسعنا الحصول عليها لولا هذا الشعر". الخطابة والخطابة كانت من أبرز الأنشطة الفكرية والثقافية للعرب، وكانوا يلجأون فيها إلى كل الوسائل الإبداعية والجمالية والبلاغية لإقناع المستمع بوجاهة محتوى الخطبة، وعند التعامل مع ملوك الدول كان العرب يختارون أكثرهم تفوها، وقد ذكر (ابن عبد ربه لم في عقده الفريد، أن كسرى تنقص من أمر العرب في حضور (النعمان بن المنذر) لديه، مما استفز (النعمان) لعرويته، فأرسل في طلب خطباء العرب وأوفدهم إلى كسرى ليعرف مآثر العرب وقدرهم الثقافي. وكان الخطباء يخطبون في ونداتهم على الأمراء، فيقف رئيس الوفد بين يدي صاحب السلطان ليتحدث بلسان قومه، ومن هذه الخطب ما قيل بين يدي رسول الله عليه السلام عام الوفود وأوردته كتب السير والأخبار. ومن أشهر الخطباء، أولئك الذين وردت أسماءهم في الرد على كسرى، وهم أكتف بن صيفي، وحاجب بن زرارة التميمي، والحارث بن عباد، وقيس بن مسعود، وعمرو بن الشريد السلمي، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، ومن خطباء مكة (عتبة بن ربيعة) و(سهيل بن عمرو)، ومن الخطباء أيضا (هرم بن قطبة)، و(عامر بن الظرب العدواني)، وهي نماذج تشير إلى خطباء كثر لقبائل العرب، أوردتها كتب الأخبار والسير تفصيلا وحصرًا.

المستضعفون لعب جدل الأحداث العالمية دورا أساسيا نشطا فيما جرى من تحولات داخل جزيرة العرب، وكان تحول طرق التجارة العالمية إلى الشريان البري المار بمكة قادما من اليمن متجها نحو الإمبراطوريتين، عاملا مؤسسا لتغير أنماط الإنتاج الاقتصادي في الجزيرة، التي أخذت تنحو نحو التجارة كعماد أساسي للاقتصاد، وما تبع ذلك من تغيرات في البنى الاجتماعية، التي أخذت بدورها في التحول النوعي عن الشكل القبلي القائم على المساواة المطلقة بين أفراد القبيلة، إلى تفكك ذلك الشكل بتراكم الثروة في يد نفر من أفراد القبيلة دون نفر آخر، الشكل الطبقي الذي فجر الإطار القبلي، لصالح تحالفات مصلحة بين أثرياء القبائل المختلفة، وكان الناتج الطبيعي لتفاوت توزيع الثروة، ظهور شكل مجتمعي جديد على جزيرة العرب، لترصد لنا متب الأخبار الإسلامية أهم الشرائح المجتمعية الجديدة، على خريطة النظام الطبقي الطالع، مقابل الطبقة المترفة من أثرياء تجار الغرب. فقراء العرب وإعمالا لجدل الأحداث أخذ الفارق الطبقي بالاتساع السريع والهائل، ليصبح سواد العرب من الفقراء المستضعفين، يعملون في رعي الأنعام والفلاحة وتجارات البيع البسيط، يسكنون الخيام والعشش والأكواخ الحقبيرة، ويسمعون عن الخبز ولا يأكلونه، حيث كان الخبز من علامات الوجاهة والثراء، ولا يعرفون عن اللحم سوى الصليب، وهو ودك العظام تجمع وتهشم وتخلي على النار طويلا، ليحصلوا منها على الصليب، وغالبا ما عاشوا على مطاردة ضياء الصحراء وأورالها وبرابيها. ونقصد بهؤلاء الفقراء، عرب صحراء، من أبناء قبائل متميزة، دفعتهم إلى الأسفل آلة التغيير الاقتصادي والمجتمعي. وبلي تلك الطبقة في التذني، طبقة المولى، وهم من أبناء قبائل أخرى ترعوها ولجأوا لقبائل مخالفة، أو كانوا أسرى فك أسياهم أسره، أو أعاجم أرقاء أعتقهم سادتهم بمقابل. وقد شكل هؤلاء طبقة بني أبناء القبيلة الخالص الصحراء، وبين العبيد. ثم طبقة أخرى ظهرت بدورها نتيجة التفاوت الطبقي الحاد، وتكونت من أفراد تلبستهم روح التمرد على أوضاع المجتمع الجديد، فنصرفوا بتلك الروح فأضروا بمصالح السادة، فخلعتهم قبائلهم وتبرأت من فعالهم بإعلان مكتوب أو في الأسواق العامة، وهي الطبقة التي عرفت باسم "الخلعاء". الصعاليك أما أبرز تلك الطوائف أو الطبقات التي أفرزها التغيير الاقتصادي المجتمعي، فهي "الصعاليك"، وهم فئة لا تملك شيئا من وسائل الإنتاج، تمردت على الأوضاع الطبقيّة، بل وشدت عليها الحرب، بخروجهم أفرادا عن قبائلهم باختيارهم، وتجمعهم على اختلاف أصولهم في عصابات مسلحة، وأبرز الأسماء التي وصلتنا منهم : عروة بن الورد، وتابط شرا، والسليك بن السلعة، والشنفرى، وقد أطلق عليهم العرب (الدؤبان)، و(العدائين) لسرعتهم. وقد روى عن هؤلاء أنهم كانوا ذوى سمات متميزة، من الشهامة والمروءة والنبالة، وأخلاق الفروسية، فكانوا لا يهاجمون الا البخلاء من الأغنياء، ويوزعون ما ينهبون على الفقراء والمعدمين، بعد أن شكلوا لأنفسهم مجتمعا فوضويا، شريعته القوة، وأدواته الغزو والإغارة، وهدفه الأول السلب والنهب، وهدفه الأخير تعديل الموازين المجتمعية. وتروى لنا كتب السير والأخبار وطبقات الشعراء، أشعارا للصعاليك، ينعكس فيها الإحساس المرير بوقع الفقر عليهم وفي نفوسهم، ويضج بشكوى صارخة من الظلم الاجتماعي، وهوان منزلتهم، فهذا (قيس بن الحدادية) يخبرنا انه لم يكن يساوى عند قومه عنزا جرياه جذما، أما الأخبار عن الشنفرى فتروى كيف أسلمه قومه هو وأمه وأخوه رهنا لقتيل عن قبيلة أخرى، ولم يغدوهم، وكيف تصهلك الشنفرى ورفع سيف ثورته بعد أن لطمته فتاة سلامية، لأنه ناداها: يا أختي، مستنكرة أن يرتفع إلى مقامها. ومن مثل تلك الأخبار، نستطيع تكوين فكرة واضحة عن المدى الذي فعله المال داخل القبيلة، مما

أدى بالصحابيين إلى تصم حرمهم بعباسهم، وحبوبين جماعهم المسححة صداه حبياء، ببيروا منهم مقومات الحياة الإنسانية التي أهدرها الواقع، وهو المبدأ الذي يتجلى واضحا في شعر (عروة بن الورد) وهو يقول : إذا المرء لم يبعث سواما ولم يرح عليه ولم تعطف عليه أقرابه فللموت خير للفتي من حياته فقيرا، ومن موي تدب عقاربه العبيد وفي ضوء الحاجة لليد العاملة في خدمة آلة الاقتصاد الجديد، بدأت بلاد العرب تعرف النظام العبودي، وكان مصدره السبي والنخاسة وعبودية الدين، حتى جاء وقت أصبحت تجارة العبيد بمكة تجارة منتظمة، تأتي بهم من سواحل أفريقيا الشرقية، وهم الطائفة السوداء، ومنهم من كان يشتري من بلاد فارس والروم وهم الطائفة البيضاء. لاستخدامهم في حراسة القوافل، وأعمال الري الصناعي والزراعة والحرف وليس أدل على كثرة هؤلاء العبيد. من أن هنذا بنت عتبة اعتقت في يوم واحد أربعين عبدا من عبيدها، كما اعتق أبو احيحة سعيد بن العاص مائة عبد. اشتراهم واعتقهم. ومع النظام العبودي انتشرت عادة التسري بالإماء، فكان للرجل ان يهب أو يبيع أو ينكح أمته أو يجعلها مادة للكسب بتشغيلها في البغاء، ثم يأخذ ناتجها المولود ليبيع بدوره وعندما جاء الإسلام حرم البغاء، ولكنه أبقى علي نظام ملك اليمين ضمن ما أبقى عليه من أنظمة الجاهلية وقواعدها المجتمعية، لكنه رغب في العتق وحض عليه. الأساطير مع التطور الرتيب البيئي للقوى المنتجة، نتيجة للتعددية والتنشيطي القبلي، تواضع العقل العربي على إلقاء تفاسير ميتافيزية، لما يجابهه من ظواهر طبيعية، يحاول بها تبرير ما يحدث حوله، وهو ما اصطلح بعد ذلك على تسميته بالأساطير بين العرب أنفسهم، خاصة بين الطبقة المثقفة من أثرياء تجارهم، وهو ما يعلن عدم قناعة مستبطن بتلك التفسير، التي أدرجت ضمن أخبار السالفين وأنبياء الأمم وقوادهم تحت عنوان واحد يجمعها هو (الأساطير). أساطير الماء ولما كان المطر أهم الظواهر وأخطرها لحياة البدوي، فقد وضعت بشأن انقطاعه أو تواتره سيولا تفاسير أسطورية بدائية بسيطة بساطة حياة البداوة، فإذا أمطرت السماء نسبوا المطر إلى فعل النجم أو المجموعة النجمية التي توافقت من الظهور مع سقوط المطر، فيقولون : أمطرتنا بنوء كذا. وكان لفيض المطر أحيانا ودوره المدمر تفاسير من لون آخر، فيبدو أن الذاكرة العربية احتفظت بأحوال عرب قداماء، دمرت بلادهم بسبب الأمطار العاصفة، فحكوا عنها روايات تفسيرية، تكمن الأسباب فيها بيد الآلهة الغاضبة البطوش على من خالفوا أوامرها أو نواهيها، وهو ما روته العرب مثيلة عن هلاك عاد وحمود، ويمكن الرجوع بشأنه تفصيلا للفصول الأولى من كتب الأخبار الإسلامية، وعلى سبيل المثال تاريخ الأمم والملوك للطبري. كذلك كان لندرة المطر أساطيرها الخاصة، والتي دفعتهم إلى ابتداع ألوان من الطقوس، قصدوا بها تحريض الطبيعة على العمل، ويبدو أن ملاحظة سكان السواحل للضباب الصاعد من الماء ليكون سحابا ممطرا اثر، في تصور اصطناع حالة شبيهة، فكانوا يوقدون نارا تخرج عاداتها دخانا شبيها بالضباب الصاعد للفضاء، بقصد الاستمطار، ولأن البقر كان رمزا للخصب عند الشعوب القديمة، فقد عقدوا بين النار والبقر في طقس يجمعون فيه الأبقار، ويصعدون بها ا لمرتفعات، ويربطون في ذيلها مواد قابلة للاشتعال يوقدون فيها النار، فتتهرع الأبقار مذعورة تثير الغبار وهي تهبط من الجبل، لتصطنع حالة شبيهة بالعواصف الممطرة، وإثناء ذلك يضجون بالدعاء والتضرع، ويرون ذلك سببا للسقيا بعد ذلك. أساطير السماء وفي العصر الجاهلي الأخير، ومع النزوع نحو توحيد قومي وديني تحت ظل إله واحد، ارتفع العرب بذلك الإله عن المحسوسات، ونظروا إلى الهيم ساكنا السماء في قصر عظيم تحفا حاشية من الملائكة، لذلك قدسوا السماء وأجرامها، والقسم بها، وبظواهرها، وحفوا بالقدسية كل ما تساقط من السماء بحسبانه قادمة من ذلك المكان المقدس حيث العرش، فكان تقديس الأحجار النيزكية احد نتائج ذلك الاعتقاد. وقد نسبوا إلى الأفلاك أثرا عظيما في حياة البشر والأمراض والأوبئة، وكان تساقط الشهب يعني وقوع أحداث جلل، كالحروب، أو الكوارث الاقتصادية أو الطبيعية، أو ولادة رجل عظيم، أو موت لآخر. ويبدو أن تلك القدسية امتدت عند بعض القبائل إلى تأليه نجوم السماء، بينما اتجه البعض الآخر إلى اعتبارها هي ذات الملائكة، وقالوا إنهن بنات الله، أولهن علاقة بالله على الجملة في أكثر من شأن، ويعبر عن ذلك الرواية المشهورة بشأن كوكب الزهرة والملكين هاروت وماروت، وكيف أغوت الزهرة الغائبة الملكين الورعين فارتكبا الخطيئة وعصيا الله خالق السموات والأرض، وكيف تحولت تلك المرأة الفاتنة التي أغوت ملائكة السماء بدورها إلى كائن سماوي يتمثل في ذلك الكوكب الجميل المعروف بكوكب الزهرة.



جديد

أفلام حرة

العرب قبل الإسلام

العقائد.. والتعدد .. والأسلاف (٣)

سيد القمني

١١ يناير ٢٠٠٥

فهميان

مقريبيان

اشاعة اسمها
حقوق إنسان

أساطير البشر

الذخيرة الغائبة

قصائد

انصك بنا

شهادان

خواص من صديق

مقالات

قرآن لك

روابط

كذلك لم يجد العرب في تميز بعض الأشخاص إلا سمات خارقة ، نسبرها إليهم أحيانا انبهارا وأحيانا تمجيدا، فهذا خالد بن سنان يطفئ النار التي خرجت بجزيرة العرب وكانت لها رؤوس تسيح فتتهلك البلدان ويبدو أنها كانت ذكرى بركان مدمر، لكنهم جعلوا لنار البركان رؤوسا أكلة حاربها ابن سنان حتى أطفأها وردها إلى مقر الأرض .

وهذا الصعلوك القوى النبيل ، يشتد الإعجاب به وبقوته حتى يقولوا انه قتل الغول واتى يحمل رأسه تحت ابته ، فأسموه (تأبط شرا) وهذا عنتر بن شداد يشد على الأعادي فيكسر رماح الحديد وينزع النخيل من مواضعه ويحارب الغزاة ، حتى يتحول مع النزوع القومي في الجاهلية الأخيرة إلى بطل عربي قومي يحارب أعداء العرب بقواه الجبارة .

وذاك سيف بن ذي يزن يدخل الحلم القومي الهروبي بعد تحرير بلاده من الأحباش ، فيتم التعظيم على استعانتة بالفرس الذين يحتلون بلاده عوضا عن الأحباش ليتم تصويره بطلا شعبيا عظيما يقاتل الجيوش ويهزمها بقوته ومهارته .

وهو ما يشير إلى نزوع جديد نحو أساطير البطولة للجاهلية في عصرها الأخير، لتصنع رمزها القومي العربي، وهي تنحو نحو التوحد الآتي.

أنماط الزواج

في جزيرة العرب ، تعددت أنماط الزواج ، كنتاج ضروري لشكل العلاقات المجتمعية ، والتوزع القبلي

،وتباعد المضارب عبر مساحة تكاد تكون قارة متباينة ، تشكل فيها كل قبيلة وحدة قائمة بذاتها، ومن هنا فرضت تلك الأوضاع أنماطا عدة للنكاح ، عددها لنا كتب السير والأخبار الإسلامية .

النكاح لأجل

و النكاح لأجل كان يقع على طريقتين تمثلان نوعين من الزواج ، وهو لون من النكاح الصريح الذي لا يعني زواجا بالمعنى المفهوم، والنوع الأول منه هو ما عرف بنكاح (الذواق) الذي يتم دون أي شروط تعاقدية ، ويحل برغبة أي من الطرفين متى ما شعر بعدم الرغبة في الاستمرار، وقد اشتهر بهذا النكاح (أم خارجة) التي تتاكدت وأربعين رجلا من عشرين قبيلة، فكان يأتيها الرجل متوددا يقول ؟ خطب ، فترد: نكح ، فيأتيها، حتى ضرب بها المثل فقيل : أسرع من نكاح أم خارجة ، وهو الخبر الذي أورده الزبيدي في تاج العروس والميداني في مجمع الأمثال .

أما النوع الثاني فهو نكاح المتعة ، وقد عرف بعد ذلك في عهد النبي (ص) كمشروع للمسلمين دون حرج ، وكان قبل ذلك واسع الانتشار بين عرب الجاهلية ، وكانت دوافعه لديهم التنقل والأسفار والحروب ، حيث كان الرجل يتزوج على صداق محدد لأجل محدد، ويقضاء المدة بنفسه التعاقد، وقد كان لأثرياء مكة الدور الأساسي في إرساء هذا اللون من النكاح ، حيث كانوا أصحاب قوافل وسفر، وممكنات مادية تسمح لهم باقتناء الحريم على تلك الطريقة ، على محطات سفرهم بالقوافل ، ويبدو انه لون من التقنين الأحدث للطريقة الأولى "الزواج بالذواق". انكحة في عداد الزنى وعرفت الجاهلية ألوانا أخرى من النكاح وكرهته رغم عمل البعض به، فكان في عداد الزنى، وتمثله عدة ألوان ، أولها نكاح الشقار، وهو أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته دون امهار، فكانت كالتبادل البضائعي، لاحق للمرأة فيه ولا مهر لها، وقد نهى الإسلام عن هذا اللون من النكاح (لا سنا في الإسلام)، ورغم ذلك لم يزل معمولا به خاصة بين فقراء المسلمين ، كحل غير مكلف لعدم وجود المهر فيه . وهناك لون آخر عرف باسم المضامدة ، تتخذ فيه المرأة خليلا أو أكثر على زوجها، وكانت تفعله نساء القبائل الفقيرة زمن القحط ، وكان يتم بعمل الرجل فتذهب إلى السوق وتعرض نفسها على ثرى يكفلها ويمنحها المال ، ثم تعود بعد ذلك لزوجها بعد أن توسر بالمال الكافي لإعاشة أسرتها، وبدوره كان نكاحا يدفع العامل الاقتصادي أساسا.

ثم ألوان أخرى من النكاح البديل المعروف بتبادل الزوجات، وزواج المقت، وكان مكروها من العرب وأسموه المقت كرامة له، وكان يتزوج بموجبه الرجل زوجة أبيه كجزء من ميراثا عند موت ذلك الأب ، وقد أبطل الإسلام هذا اللون من الزواج ، هذا ناهيك عن نكاح الاستبضاع الذي يطلب فيه الرجل بذرة سيد عظيم في رحم زوجته عساه يرزق بولد عظيم .

ومن انكحة الزنى الصريح ، نكاح صاحبات الرايات الحمر، وهن بغايا مكة اللائي كن ينشطن في مواسم التجارة وموسم الحج ترغيبا للتجار وأهل السوق ، وقد شجع أثرياء مكة صاحبات الرواية الحمر، لمزيد من الإنعاش الاقتصادي، لكنهم مع ذلك كانوا على مروءة إن حملت المرأة، حيث يلحق ولدها بما يرى أهل القارة العاقبة أمهات ، القادح ، فمروءة ابنه منة عليه الحنطة

المراسم والعيادات أو بصنوبر الحدائق • ييصبح حين من نوح سبي - المجموعه .

انكحة بالعرف

وقد تواضع العرف القبلي في ظل ظروف التشتت القبلي ، والإغارة والافتتال بين القبائل وبعضها ، على لون بشع من ألوان النكاح ، هو لون صريح من الاغتصاب المهين ، ينزل بالقبيلة المهزومة ونسائها ، حيث كان من حق المنتصر سبي النساء والاستمتاع بهن حيث تصبح ملكه بالسبي ، ويصبح من حقه بيعها إن لم يجد من يفتديها منه . ومثله نكاح الإماء بالشراء والامتلاك ، وهذا اللون من النكاح كان لا يعرف عددا للنساء الحريم على سرير الرجل . وهو شبيهه بالزواج غير المحدد لعدد الزوجات الذي كان معرفا بدوره بين الطبقات الثرية ، لكنه كان نادرا معدودا ، حتى تجده في خير أو اثنين ، كما جاء عن غيلان الثقفي الذي أسلم وتحتة عشر نسوة .

مكانة المرأة

حول مكانة المرأة في جاهلية العرب الأخيرة ، اختلف الباحثون إزاء ما بأيديهم من معطيات تتضارب اشد التضارب ، وتتناقض إلى حد عدم الالتقاء أبدا . فذهب الباحثون إلى طريقتين على ذات الدرجة من التضارب والتناقض ، منهم من رأى للمرأة في الجاهلية مكانة تتميز بها عن وضع بنى جنسها عند بقية الشعوب ، وأنها سمت إلى وضع السمات في المجتمع ، بينما ذهب فريق آخر إلى النقيض وهبط بها إلى أسفل سافلين .

الشكل الارقي

ومن ذهبوا بمكانة المرأة في ذلك العصر إلى مكان السمات المتميز ، اعتمدوا على ما جاء بديوان العرب من أشعار ، تبين كيف كانت المرأة هي الوتر الحساس في قلب كل عربي ، ومبعث كل الهام ، حيث التزمت القصائد جميعها تقريبا نهجا يهيم بالمرأة ويمجدها ، وما يلاحظ على المعلقات التي لا تخلو من الإشادة بالمرأة والتغزل فيها بل والفخر بها .

ويعود الاتجاه نفسه إلى المأثور العربي وماروا من أخبار عرب الجاهلية في المصادر الإسلامية ، ليجد العربي حريصا على كرامة المرأة ويعتبرها موضع شرفه ، حتى شنت من اجلها حروب ، وأبرزها موقعة ذي قار التي انتصرت فيها ثلاث قبائل عربية متحالفة ، على الفرس ، بسبب رفض النعمان بن المنذر تزويج ابنته للملك الفارسي . كذلك حرب الفجاج الثانية التي قامت بين قريش وهوازن تلبية لاستجداد امرأة بآل عامر للذود عن شرفها ، ولا ننسى حرب البسوس التي دامت أربعين عاما بسبب انتهاك جوار امرأة ، وما قصة عمرو بن هند وعمرو بن كثلوم إلا ابرز مثل لأنفة العربي وحرصه على كرامة المرأة وعزتها .

وتروي كتب الأخبار وطبقات الشعراء كيف كانت المرأة تستنشر في عظام الأمور، كما في حادثة سعدي أم اوس الطائي، ناهيك عن مشاركتها للرجال في ساحة القتال، تحثهم على المثابرة وشد أزهرهم، وتداوي الجرحى وتدعو للأخذ بالثأر، فيستبسل الرجال مخافة سبي نسائهم، وقد كان لواء (الحرثية) في شعر حسان بن ثابت وراء نصر تريش في احد على المسلمين، فعندما سقط لواء المكيين هرعته إليه (الحرثية) وسط الرماح والسيوف وحملته، فجمعت حوله فلولي ٧. المنهزمين، وظلت تهتف بهم حتى عادوا وحملوا على المسلمين حملة شديدة. ودور (هند بنت عتبة) في ذات المعركة من أهم الأدوار في تاريخ تلك الحروب، حيث أتت بنساء مكة وقيانها يشحذن الرجال وينشدن الأناشيد الحماسية لتأجيج الحمية القتالية. وكانت (هند) من شاعرات العرب اللاتي يصفن المعارك ويحسن تصوير الأبطال، واشتهرت أيضا كفيظة بنت النضري، وأروى بنت الحباب، وبنت بدر بن هفان والهيفاء القضاعية ولأمراء أن الخنساء ذهبت من بينهن بعمود الشعر رثاء وفخرا وحماسة وحربا.

ولا يغيب على فطن انتساب قبائل العرب إلى أمهاتها مثل بجيلة وخندق وطهية ومعاوية ونويرة، ويبدو أن الحرص على مكانة الأم كان وراء حرص العربي على كرم النسب وطهارة الرحم، وقد ذكر كتاب الأغاني في حديثه عن حرب الفجاج أن (مسعود الثقفي) ضرب على زوجته (سبيعة بنت عبد شمس) خباء وقال لها: من دخله من قريش فهو آمن، فجعلت توصل في خباؤها ليتسع.

وفي الأشعار تقدير عربي شديد للمرأة، فيخاطبها إذا كانت زوجة بأفضل الألقاب، فهو يقول لها:

يا ربة البيت قومي غير صاغرة

ضمي إليك رجال القوم والقربا

واللقب، وتعبير (غير صاغرة) يشير إلى أي درجة من السمو كانت.

الشكل الآتي

أما أصحاب الاتجاه الآخر، فيستندون إلى ذات المعطيات وذات المادة التاريخية، ليعطونا صورة من أشد الصور بخسا بحق المرأة، فكانت تورث مع المتاع إذا توفى عنها زوجها، ويرث الولد زوجة أبيه ويتصرف فيها حسب مشيئته، فيأمنه أن يتزوجها، أو يزوجه لغيره ويأخذ مهرها، أو يعضلها حتى تموت، أي يمنعها من الزواج حتى تدفع فدية عن نفسها. فهي في منزلة بين الإنسان والأنعام، أو هي مثل متاع البيت متعة لصاحبه، وسميت متاعا بالفعل، مهمتها الاستيلاء والخدمة، وشاع الكثير عن بفض العرب للبنات، حتى سئل إعرابي: ما ولدك؟ قال: قليل خبيث، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا عدد أقل من الواحد، ولا أحببت من بنت.

وهذا (أبو حمزة العيني) يهجر زوجته إلى بيت مجاور بعد أن ولدت بنتا، حتى أمست تقول شعرا:

ما لأبي حمزة لا يأتينا

يظل في البيت الذي يلينا

غضبان إلا نلد البنينا

تالله ما ذلك في أيدينا

وإنما نأخذ ما أعطينا

ونحن كالأرض لزارعينا

تنبت ما قد زرعه فينا

وغني عن التنبيه تلك الرؤية المتقدمة للرجل كسبب في جنس الوليد، وأن المرأة مجرد أرض تقبل الجنس المزروع وتنبتّه .

هذا ناهيك عن ظاهرة الوأد كأشنع الظواهر طرا، وقد ذهب بعضهم إلى قصر الميراث على الولدان الذكور وقالوا، لا يرث إلا من يحمل السيف.

التحليل التاريخي

ومثل هذا التناقض في المعطيات ثم التناقض بالتبعية في تقارير الباحثين حول وضع المرأة في الجاهلية، لا يحله إلا رؤية تاريخية موضوعية ، قد عاش العرب في قبائل متعددة موجودة جنبا إلى جنب في زمن واحد، ولكن في مناطق مختلفة ، وهي تتداخل معا، ففي مكة جمع شكل المجتمع القبيلة إلى جوار الواقع الحضري، وطريقة العيش ووسائل الكسب ، من رعى وغزو إلى استقرار زراعي، إلى تجارة ، أثرها الذي يجب أخذه في الاعتبار عند مناقشة وضع المرأة في الجاهلية ، وهو موضوعنا التالي.

العامل الموضوعي ووضع المرأة

سبق وأشرنا إلى اختلاف آراء الباحثين في وضع المرأة زمن الجاهلية ، كما ألمحنا إلى أن ذلك الاختلاف ناتج من تعدد القبائل والأشكال المجتمعية على التحاور في زمن واحد، في مناطق مختلفة ، كذلك تنوع الأقاليم وطرق الكسب التي تتباين ، وما تبع ذلك بالضرورة من اختلاف في وضع المرأة ، ولا ريب أن دخول الشكل الطبقي أدى إلى ثراء قبائل ضاربة على طرق التجارة ، مقارنة بقبائل ظلت على فقرها في باطن الجزيرة ، إضافة إلى التفاوت الطبقي داخل القبيلة الواحدة ، وما ارتبط به ذلك التطور الاقتصادي في تجيير الأطر القبلية في المناطق التي أصابها ذلك التطور، فتغيرت بناها المجتمعية وسعت نحو نزوع وحدوي على مستوى الأرض والسماء، مما أدى إلى نشوء وعي قومي وحدوي، استشعرت فيه قبائل العرب بوحدة جنسها، وكان لكل تلك التطورات دورها في اختلاف وضع المرأة ، مما أدى لاختلاف رؤية الباحثين بدورها.

ظاهرة الوأد

يقول القرآن الكريم معقبا على ما آل إليه حال المرأة في العصر الجاهلي ، أمرا، ناهيا ((لا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم))، وينبه (الدكتور علي عبد الواحد وافي) هنا إلى أن الوأد الناتج عن الفقر لم يكن فيه تمييز بين الذكر والأنثى، فكانوا يندون على الجملة ، وهو رأي فيه نظر، حيث لم يثبت وأد الذكور على الإطلاق ، حيث كانت البداوة ونمطها بحاجة دائمة إلى ذكور شغيلة محاربين ، لكنه يطرح من جانب آخر وجهة نظر بشأن وأد الإناث، فيقول إنهم اعتقدوا أن البنات من خلق الشيطان ، أو خلق إله غير إلههم ، فوجب التخلص منها.

وفي هذا التفسير الديني نجد تفسيراً اقرب للمقبول عند الدكتور (علي زيعور) حيث يقول : إنه كان لونا من طقوس التقرب لإله القمر (ود) رمز الأنوثة في رأيه ، وإنه كان من بقايا القرابين البشرية ، التي درجت عليها الشعوب القديمة ، قبل استبدالها بذبح الحيوان فداء للإنسان .

لكن ما يعني الأمر هنا هو أن المطالع لكتبتنا الإخبارية لن يجد ظاهرة الوأد أمراً متفشياً، كما هو شائع ، بل كان على العكس نادر الوقوع ، ذكرت حالات بعدد قليل لا يرقى بالحالة إلى ظاهرة منتشرة ، وقد عابه العرب وانكروه . أشهر حالتين يتم ذكرهما حالة (قيس بن عاصم) وحالة (عمر بن الخطاب).

ولعل صدق الوحي والتنزيل هو الفيصل بشأن سبب الوأد، في بعض مواضع وبعض قبائل الجزيرة ، حيث أشار للوضع الاقتصادي وأثره في تلك العادة ، فالفقير بحاجة للولد المنتج ، وليس بحاجة لأنثى فم يلتهم في مجتمع ندرة على العموم، ثم كان حال القبائل المتحارب يعرض الإناث للسبي والعار، وكان محتماً أن تهزم القبيلة الفقيرة وتسبي بناتها، لقلّة عتادها وخيلها.

والدليل على عدم نقشي الوأد، وأنه بالفعل كان ناتج الإملاق كما قال الوحي الصادق ، أن عليّة القوم ومن تيسر معاشهم فتهذبت نفوسهم ، استهجنوا ذلك بشدة ، فكانوا يفتنون البنات من الوأد، واشتهر من بين أجداد العرب (صعصعة بن ناجية) جد (الفرزدق)، الذي اخذ على نفسه إلا يسمع بمؤودة إلا فداها، فسمي محبي الموءودات ، وقال الفرزدق فيه :

وجدي الذي منع الوائدات

وأحيا الوئيد فلم يوأد

وتعبر حادثة (أم كحلة الأنصارية) عن كون السبب الاقتصادي وراء تعاسة المرأة كغم أكل غير منتج في وسط فقر وندرة ، حيث ذهبت إلى رسول (ص) تقول : يا رسول الله توفى زوجي وتركني وابنته فلم نورث ، فقال عم ابنتها قوله فيها صدق الحال ، قال : يا رسول الله هي لا تركب فرسا ولا تحمل كلا ولا تنكي عدوا، يكسب عليها ولا تكسب .

وهناك سبب آخر أدى إلى حالة واحدة أخرى من حالات الوأد النادرة ، ويتعلق بالظاهرة في قبيلة تميم ، حيث كانت تميم قد امتنعت عن أداء الإتاوة للنعمان ملك الحيرة ، فجرد عليهم حملة سبت نساءهم ، فكلّموا النعمان في نسائهم ، فحكم بترك حرية النساء في الاختيار لقرار النساء أنفسهن ، فاختلفن في الاختيار ما بين البقاء في حوزة من سباهم وبين العودة لذويهم، وكانت فيهم بنت (قيس بن عاصم)، وهي الحالة النادرة المشار إليها، فاختارت سابيتها على زوجها، فنذر (قيس) أن يدس كل بنت تولد له في التراب ، وافتدى به بعض تميم نكايّة في النساء.

الوضع الطبقي

كان نشوء الطبقة عاملاً أساسياً في تحديد وضع المرأة ، فكان هناك الإمام، والحرائر، وكانت الحرائر تتمتع بمنزلة سامية ، يخترن أزواجهن ، ويتركهن إذا أساءوا معاملتهن ، ويحمين من يستجير بهن، وكن موضع فخر الأزواج والأبناء، بعكس أبناء الإمام الذين كانوا يستحيون من ذكر أمهاتهم.

وعلا شأن المرأة في الوسط الثرى، خاصة إذ أتمتعت هي بالنزاع، فكانت تختار زوجها كما حدث من السيدة خديجة أم المؤمنين وكانت إحدى ثريات مكة المعدودات ، عندما خطبت لنفسها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان اخررن يفخرون بنسب أنفسهم إلى أمهاتهم.

وكما سبق وأشرنا فقد ارتبط ذلك التطور الاجتماعي ونشوء الطبقة بنزوع قومي واضح، كانت المرأة

طرفا في جدله التاريخي، حيث كانت امرأة سببا في حرب العرب والفرس في ذي قار، والفرح الاحتفالي الهائل في الجزيرة بالنصر العربي، أما النزوع القومي وشعور قبائل العرب أنهم جنس له فوعيته وخصوصيته، فقد دفعهم إلى عدم تزويج بناتهم من أعاجم مهما بلغ الأعجمي من مراتب الشرف والسؤدد والمال.

الحب والزواج

يبدو انه رغم ما نسمع عن قيود وأعراف عربية، وضعها المجتمع على علاقة الشاب بالفتاة، فإننا نسمع أيضا مع نشوء الطبقة الثرية عن مجالس سمر تعقد في أفنية الدور، ويجتمع فيها الشباب والشابات حيث تضرب الدفوف ويرقص الحداءون ويلقى الشعر، خاصة في آخر سنوات الجاهلية الأخيرة.

وكان الشاب منذ بلوغه يبدأ التشبيب بالنساء ويلحقهن، وكان ذلك إحدى علامات الرجولة والفخر، ولأن الشعر كان أغنية العربي وفصاحته، فقد كان كل شاعر يبدأ شعره بالغزل، إلا أن الشعر النسوي كان يخلو تقريبا من ذلك الغزل، حيث كان بوح المرأة بمشاعرها لونا من خلق الحياء التقليدي بين العرب.

اختيار الزوج

وإذا تأخرت خطبة الفتاة، التي عادة ما كانت تتزوج في سن مبكرة (حوالي الثانية عشرة)، فإنها كانت تلجأ إلى طلب الرجل، فتتشر شعرها، تكحل واحدة من عينيها، وتسير تحجل في الشارع ليلا تنادي: بالكاح، أبض النكاح، قبل الصباح.

وهو أمر يشير إلى أن العرب وان درجوا على عادة اختيار الفتى لفتاته، فإن العكس كان حادثا، وتشير الأحداث إلى أن المرأة كانت حرة في اختيار زوجها، خاصة إذا كانت من علية القوم، فهذه (هند بنت عتبة) تقول لأبيها: إني امرأة ملكت أمري، فلا تزوجني رجلا حتى تعرضه علي، فقال لها وذلك لك.

وتقول المصادر أن حق ابن العم في بنت عمه كان عرفا مقدما ومسئونا، إلا أن العرب بعد ذلك صارت تدرج على التزاوج من خارج القبيلة، ويقول الباحثون إن ذلك كان ناتج ملاحظة أن زواج الأقارب يأتي بالضاروين (الضعفاء والمشوهين)، فصارت لهم في ذلك أمثال مضرورية، من قبيلها: لا تتزوجوا القريبة فيأتي الولد ضاويا، والزواج من البعداء أنجب للولد وابهي للخلفة واحفظ لقوة النسل، لا تتزوجوا في حيكم فانه يؤدي إلى قبيح البغض، النزاع لا القرائب.

زواج الغريب

ويبدو لنا أن الزواج من قبائل أخرى، كان مرحلة متطورة تساوقت مع التطور اللاحق ، الذي دفع بأفراد القبائل للخروج عن الحالة القبلية الأولى ، ونظام التحالفات الذي كان إرهاباً بالقومية والتوحد، سعياً وراء توفير إمكانات إقامة أحلاف قبلية كبرى قوية . وبرز الأمثلة على ذلك عندما بلغ الصراع ذرته بين كتلتي هاشم وأمّية في مكة ، وبدأ كل من البطنين يعقد تحالفاته الكبرى ضد الآخر، وكيف وهي السياسة التي اختطها هاشم بنفسه، وتبعه فيها بنوه من بعده.

لكن ذلك لم يمنع استمرار الزواج من داخل القبيلة بالطبع وكان للطبقة والفقير والفني دوره في ذلك، فكانت الفتاة في الطبقات الأدنى تفضل زواج الأقارب لأنهم أكثر معرفة بشؤونها من الغرباء، وأحرص على ستر عيوبها وسلامتها، وفي حكاية (عشمة الجلية) ما يشير إلى هذا المعنى، فقد نصحت شقيقتها (خود) عندما جاءها خطاب أعراب حسان ، بقولها: تزوجي في قومك ولا تغرك الأجسام ، فشر الغربية يعلن ،وخيرها يدفن ، ترى الفتيان كالنخل ، وما يدريك ما الدخل !؟

الطلاق

معلوم أن الطلاق كان بيد الرجل ، وكانوا يطلقون ثلاثاً على التفريق فإذا تمت امتنعت العودة، لكن أيضاً كان من حق المرأة الثرية ، ويشار إليها بالشريفة لمالها، حق الطلاق ، وقد أشار أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه إلى ذلك في حديثه عن نساء الجاهلية يطلقن الرجال ، وبلغ الأمر حدا لا تجبر فيه المرأة على المصارحة بالطلاق ، بل كان يكفيها أن تحول باب خيمتها من الشرق إلى الغرب فيفهم الرجل انه قد طلق من امرأته.